مجلة إنسانيات معاصرة (Revue Inssaniyate Mouãssira)
المركز الجامعي صالحي أحمد – النعامة -
ISSN : 2830 - 8050
المجلد: 01 العدد: 02 سبتمبر 2022 م الموافق لـ: صفر 1444 هـ

تجليات صورة المقاومة بين الأدبي والتاريخي في الشعر الشعبي في الجنوب الغربي

د. محمد مرين حسن
معهد الآداب واللغات بالمركز الجامعي النعامة

The manifestations of the image of resistance between literary and historical in popular poetry in the southwest.

الملخص:

يعتبر الشعر الشعبي أحد المظاهر الثقافية التي ساهمت في تشكيل الفضاء الثقافي الشعبي الجزائري، في مراحل تاريخية متعاقبة، ممّا جعله أحد المراجع المهمة في دراسة الفضاء الثقافي لأي منطقة، ويعتبر فضاء الجنوب الغربي أنموذجا لهذا الحضور الشعري، في سياق تاريخي يحمل مشاركة فعالة لدوره في مقاومة الاحتلال منذ المقاومات الشعبية إلى ثورة التحرير المجيدة.

كلمات مفتاحية:

الشعر الشعبي، الفضاء الثقافي، المقاومة الشعبية، ثورة التحرير، الجنوب.

Abstract: Folk poetry is considered one of the cultural manifestations that contributed to the formation of the Algerian popular cultural space, in successive historical stages, which made it one of the important references in the study of the cultural space of any region. Occupation since the popular resistance to the glorious liberation revolution.

Keywords: popular poetry, cultural space, popular resistance, liberation revolution, the south.

مقدمة:

يُعتبر الشعر الشعبي من أهم مظاهر التراث الشفهي والكتابي الذي واكب المراحل التاريخية للشعب الجزائري، ولعب دورا في بناء الوعي الوطني والحفاظ على القيم الوطنية والروحية للمجتمع الجزائري، وهو من أهم عناصر الفضاء الثقافي التي تجلت فيه روح المقاومة لدى طبقات الشعب الجزائري لمواجهة الغزو الأجنبي، فكان الشعر الشعبي أحد الأسلحة التحريضيّة والتعبويّة التي ساهمت في نشر وعي وثقافة المقاومة في الأوساط الشعبية، وتأريخ مراحل ورجال المقاومة... فتقاطع في هذا الشعر الجانب الأدبي بالجانب التاريخي ضمن سياق اجتماعي وثقافي يمثل مرجعا لفضاء هذا المظهر الثقافي.

– فما هي التجليّات الجمالية لحضور المقاومة في الشعر الشعبي في الجنوب الغربي بين الأدبي والتاريخي؟.

أوّلا: الشعر الشعبي بين المنظور الاجتماعي والمنظور الاستيطاني (الكولونيالي):

الشعر الشعبي بوصفه "هو الأدب العامّي، قديما أو حديثا، الذي يعبّر عن الوجدان الشعب، يعبّر عنه وعن قضاياه"[1]، فإنّ كل ما هو دال فهو لغة وخطاب تعبيري، سواء كان حركة أو فعلا أو حركة أو فعلا أو هيئة أو نصّا، كل ذلك أنظمة في الخطاب، ولذا فلا وجه للتمييز بين خطاب راق وآخر غير راق"[2]. "فالشاعر الشعبي يستمد مضامينه الشعريّة من محيطه وبيئته... في الوعاء الحامل للقصيدة الشعبيّة اللغة العاميّة أو الدارجة وفي الشعر العربي اللغة الفصحى، ويكاد هذا الاختلاف يتلاشى إذ أنّ كلاهما يعتمد في بناء هذا الوعاء على الحروف نفسها والأصوات ذاتها."[3]، وأحيانا بسبب السياق التاريخي قد يكون لهذا الخطاب الشعري الشعبي، الذي يوصف بالهامشي، دوره المحوري في الوجدان الشعبي، دفاعا عن هويته ومقاومة للهيمنة الأجنبية. فكان الشعر الشعبي يعبّر عن المعتمد والأساسي في المنظور الاجتماعي والشعبي، والاحتلال هو في الحقيقة الذي كان يمثّل الهامش غير المرغوب فيه في الفضاء الثقافي للمجتمع.

[1]– حسين نصّار، الشعر الشعبي العربي، منشورات إقرأ، لبنان، 1980، ص 12.

[2]– عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، ط3، ص 20005، ص 61.

[3]– طيبي بوعزة، المزج بين البعدين الجمالي والتاريخي في الشعر الشعبي الجزائري، جامعة ابن خلدون، تيارت الجزائر م4، العدد 2، ص 37.

لعب الشعر الشعبي الجزائري دوره في المساهمة في الوعي التحرّري الوطني، ممّا جعله محلّ احتفاء ومتابعة من المجتمع الذي تلقى هذا الشعر وعمل على تداوله، فنظرة المجتمع إلى الشاعر الشعبي بوصفه يحمل الحكمة فلقبته الأوساط الاجتماعيّة بالشيخ، لدرجة أن كلمة الشيخ هيمنت على لقب الشاعر، باعتبار الشاعر صاحب حكمة ومعرفة مثل عالم الدّين، وهذا يبيّن قيمة ومكانة الشاعر في المنظور الشعبي، في مقابل المنظور الاستيطاني الذي اعتبر أمثال هؤلاء الشعراء جزء من دعاية المقاومة والتمرّد على سلطتها، فقامت بقمع هؤلاء الشعراء والتضييق عليهم، فما تعرّض له الشيخ محمد بن يعقوب أو الشيخ محمد بلخير، من نفي وسجن يدلّ أن المنظور الاستيطاني كان يدرك خطورة ومكانة الشعر الشعبي، الذي ظل مسايرا لوجدان الشعب، كما تلقته الأوساط الشعبية بالاحتفاء والاحتفاظ به إلى اليوم عبر الأجيال، ومن ذلك الشعر الشعبي في الجنوب الغربي، الذي عرف نماذج متنوّعة تجلت فيها روح المقاومة، التي كانت تتأسّس على مرجعيّة ثقافيّة وطنيّة ترفض حالة الاحتلال، بكل ما تمثله من أنساق.

1- التقاطع الثقافي والتاريخي في بنية القصيدة الشعبية (الشيخ محمد بن يعقوب):

استنطاق الشعر الشعبي من منظور الأنساق النقديّة الثقافيّة، هو أحد الأدوار التي تحمّلها النقد الحديث لاكتشاف الفضاءات الثقافيّة التي ساهمت في تشكيل هذا الشعر وتأثرت به، حيث "الأداة النقدية مهيّأة لهذه الأدوار

النقدية الثقافيّة، خاصّة مع ما تملكه من الخبرة في العمل على النصوص"[1] وامتلك النص الشعري الشعبي من الخصائص الجماليّة ما جعله يملك قابلية المقاربة الجماليّة، ومن ذلك تجليّات المقاومة في هذا الشعر، حيث يتقاطع السياق التاريخي والفضاء الثقافي، الذي يصبّ في تشكيل وعي المقاومة المتجذّر في وجدان وثقافة الشعب، ففي ظل سياق تاريخي لم تنقطع فيه عمليّات المقاومة في الجنوب الغربي، مقاومة أولاد سيدي الشيخ (1864–1880) ثم مقاومة الشيخ بوعمامة (1881–1908)، ففي هذا الفضاء المقاوم ساير الشعر الشعبي روح المقاومة ثقافيا، برفض الذلّ والعيش في كنف الاحتلال، ولو أدّى ذلك إلى الهجرة والنفي، يقول الشعر محمد بن يعقوب (1869 – 1933) وهو القاضي والمثقف الذي كتب الشعر الشعبي بروح الشعر الفصيح، وذخيرته الثقافيّة المتأصلة:

سَلمت في أهلي ووطاني.
ونتلف أنسب برّاني.
ولا نكون تحت أصحاب الزنّار[2].

[1]– عبد الله الغذامي، مرجع سابق، ص60.

[2]– محمد بن يعقوب، الشاعر الشيخ محمد بن يعقوب، جمع: عبد الحميد بن يعقوب، تعليق: محمد بوحميدة، دار الخلدونيّة، تلمسان، الجزائر، 2016، ط1، ص 54.

وذلك نتيجة الثقافة الإسلاميّة المتشبعة برفض الظلم وإعلاء كلمة الحق، ففي قصيدة ملحمة كربلاء، نكتشف تلك الروح الإيمانيّة المتشبعة بالفداء ومواجهة الطغيان، والتي تكشف العمق الثقافي للشاعر، الذي كتب قصيدته نتيجة اطلاع معرفي تاريخي، وليس نتيجة رواية شعبية أسطوريّة:

تحمار يبقى الدم يسيل
يموت الحسين في الفلا
يا شباب سياد هذا الجيل.
لا شك في وادي كربلا.
تحضر الأشقيا بجحافيل.
وسباب القدرة الوصّالة...
عزيوا أهل البيت يا عُقلا.
في الحسين ومع اصحابو.
سبع وسبعين في كربلا.
روس الولدان شابوا[1].

[1]– محمد بن يعقوب، مرجع سابق، ص 99.

فهذا المحمول الثقافي المنسجم مع السياق التاريخي والاجتماعي أنشأ بيئة شعريّة متناسقة مع فضائها المقاوم، وتجلت هذه الجماليات أكثر مباشرة في شعر محمد بلخير، شاعر المقاومة بامتياز، والذي رافق شعره مقاومة الشيخ بوعمامة، والنابعة من الثقافة الإيمانيّة نفسها:

كيف كان الحال يكون

ما الدوام إلا لله

بين كاف وحرف النون.

ما يشارك حد معاه.

طاعت نفسي الإله وضرب السيف.

بالفعل الزّين يدخل بنادم الإيمان[1].

2- صورة مقاومة الشيخ بوعمامة بين الأدب والتاريخ في شعر الشيخ محمد بلخير:

الشاعر محمد بن بلخير بن قدور، المعروف بمحمد بلخير، الشاعر الشعبي المشهور، صاحب عشرات القصائد الدارجة، كانت ولادته سنة 1835 بتاغست بالواد المالح بدائرة بوعلام ولاية البيض، ويعود نسبه إلى بني هلال من قبيلة الرزايقة، وتلقى تعليمه في الكتاتيب واطلع على أشعار الشعراء عبر ترحاله وأسفاره، إلى تلمسان ووهران ومستغانم...، وقوله الشعر

[1]- العربي بن عاشور، أشعار محمد بلخير، شاعر الشيخ بوعمامة وبطل المقاومة، دار الشروق، الجزائر، 2008 ص252.

جعل له مكانة، خصوصا بإتباعه لأولاد سيدي الشيخ، ونصرة مقاومتهم (1864 إلى 1880)، حيث شارك معهم في مقاومة الاحتلال، كما شارك بشعره ودافع عن وطنه ومجتمعه، واعتقلته السلطات الاستعمارية بسبب نشاطه وجهاده، وسجنته بمدينة معسكر ثم وهران ثم مرساي بفرنسا ثم كورسيكا فقضى أكثر من ثماني سنوات ثم ناصر مقاومة الشيخ بوعمامة منذ 1881 حتى 1808،حتى توفي سنة 1906، ودفن بمنطقة القناطر بالبيض ونقل بعد دلك إلى مقبرة الشهداء بمدينة بوعلام بالبيض[1].

"وقد استغرقت ثورة بوعمامة أطول مدّة في تاريخ الثورات الجزائرية ... فقد دامت أكثر من عشرين سنة (1881– 1904) دون أن نحسب ثورة أولاد سيدي الشيخ الأخرى التي كانت تحت قيادة سي سليمان وسي الأعلى والتي قد بدأت عام 1864، وقد ناضل الشيخ بوعمامة أثناء كل هذا العهد الطويل بشجاعة وثبات"[2]. وتميّزت هذه المرحلة بسيطرة الاحتلال على مناحي الحياة الجزائرية، وسياسة التمييز ضد الجزائريين التي عبّر عنها قانون الأهالي (كود دي لانديجان) واغتصاب الأراضي"[3]. والسيطرة عليها

[1]– العربي بن عاشور، أشعار محمد بلخير، شاعر الشيخ بوعمامة وبطل المقاومة، دار الشروق، الجزائر، 2008 ص8.

[2]– أبو القاسم سعد الله،الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط4، 1992 ص55، 56.

[3]– المرجع نفسه، ص79.

والتنكيل بالإنسان الجزائري وقمعه وتشريده، وتعتبر أشعاره نموذجا عن الشعر الشعبي في الجنوب الغربي وفي الوطن كله.

والشيخ بوعمامة هو محمد بن العربي بن الشيخ التاجي ولد حوالي سنة 1838 وهو من أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الغربي في الجزائر، حفظ القرآن الكريم وتلقى علوم الفقه، ورحل إلى مغرار، وأسس زاويته على الطريقة الشيخية، وخاض مقاومته منذ 1881 حتى 1908، بعد نهاية مقاومة أولاد سيدي الشخ (1864 إلى 1880)، وقضى ربع قرن في قتال الفرنسيين وتعطيل توسعهم نحو الجنوب، وخاض معارك عديدة من بينها معركة سفيسيفة ومعركة تازينة ومعركة المنقار، واضطر العدو على عقد معاهدة أمان معه فنقضها باعتدائه على السكان، وشارك مساندا لثورة الجنوب التونسي، وحليفا لثورة جيلالي زرهزني (الروقي) المعروف ببوحمارة على سلطان المغرب، (1902–1909) وتوفي الشيخ بوعمامة سنة 1908.

ربط الشيخ بوعمامة علاقات متينة مع الطرق الصوفية الأخرى ومع القبائل في كل تلك المنطقة المحيطة بقلعته بمغرار 50 كم جنوب العين الصفراء، التي أسسها سنة 1875، وأقام ورشات الأسلحة، فامتدت مقاومته من الجنوب في منطقة توات والساورة حتى شمالا إلى سعيدة وتيارت وشرقا حتى البيض، كما التقى بابن الأمير عبد الملك قبل التوجه إلى وجدة المغربية، قام بمهاجمة موكب الحاكم العام في زيارته للمنطقة سنة 1900، وقام بمسيرة للتعبئة بين القبائل والمناطق حتى سعيدة وعاد راجعا.

من أقواله:

– إذا سمعتم البارود في قبري فاعلموا أنّني مازلت أقاتل الفرنسيين.

– إذا نفدت أسلحتي سأقاتل بالعصي.

– الطاعة معناها قبول السيادة الفرنسية وخيانة الله القوي.[1]

والشاعر محمّد بلخير هو ممن أرّخ لمقاومة الشيخ بوعمامة في مجموعة من أشعاره كقوله:

جبال بوعمامة درقوا.

يا عجبا آش يصير.

شحال من المحاين شافوا.

الغيم وين حط رواقه[2].

بوعمامة باي الصحرا والأظهار والرّضى من عند المولى القيّوم

بوعمامة عزّ الطلبـــة وزيّـــار ضيف ربّي عندو معزوز مكروم[3]

كما يقول محرّضا على الجهاد:

راكبين الخيل ذكور غاليين عواد الســـوم

زوجة قيام من الحور في الجهاد اللّي معلوم

[1]– ينظر: عبد الحميد زوزو، ثورة الشيخ بوعمامة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

[2]– ينظر: العربي بن عاشور، أشعار محمد بلخير، مرجع سابق، ص.

[3]– المرجع نفسه، ص 151.

وقال: وطن العزّ نجيه والذلّ نخليه[1].

3– العمق الإنساني والتاريخي للشعر الشعبي المرتبط بالثورة التحريريّة (بن طالب بوسماحة،– شهيد لم يمت):

ولد بن طالب بوسماحة سنة 1909 في أسرة بسيطة بالعين الصفراء ولاية النعامة. وعاش يساعد أسرته في رعي الغنم والحطب، انضم إلى الثورة سنة اعتقله 1956 الجيش الفرنسي بسبب نشاطه الثوري، وتمّ تعذيبه بأنواع العذاب كالكهرباء والضرب ثم قرّر إعدامه دون محاكمة رفقة رفيقين، فتم أخذهما إلى مكان قرب العين الصفراء ونفذت فرقة عسكرية الإعدام بإطلاق النار، 21 ديسمبر 1958 برصاصة في الرأس وأخرى في الصدر، فسقط المعدومين وغادرت الفرقة العسكرية المكان، فاستشهد رفيقي بوسماحة بينما هو بعد حالة الإغماء بسبب اختراق الرصاصتين لجسده، عاد إلى الحياة ولذلك لقب بالشهيد لم يمت، فعندما استفاق ورأى جسده الملطخ بالدم فوجده أحد البدو في حالة يرثى لها فأخذه واعتنى به حتى شفي بصعوبة ومشقة وعاد لحياته الطبيعية، ملتحقا برفاقه في جيش التحرير، بينما صرّح الضابط طوماس كلود بوفاته وأمضى شهادة وفاته، التي أصبحت موجودة وموثقة، وخلال نشاطه في جبال المنطقة ألقي عليه القبض فلم يصدّق الفرنسيون قصته كيف لشخص نفذوا في حكم الإعدام يعود حيّا، وبقي في

[1]– ينظر: العربي بن عاشور، أشعار محمد بلخير، مرجع سابق، ص 249.

السجن حتى الاستقلال، حيث عاش مواطنا بسيطا يعمل في مزرعته، وكرمه الرئيس الراحل هواري بومدين وصحبه في زيارة إلى كوريا. وتوفي يوم 7 أكتوبر1990[1].

– شهادة الوفاة الأولى: عن سن 45 سنة: رقم 245 بتاريخ 21–12–1956 بتصريح الدركي: طوماس كلود thomas claude توقيع ضابط الحالة المدنية: ألين فيشو Alin Vichot.

– شهادة الوفاة الثانية: رقم 15 بتاريخ: 7–10–1990 بتوقيع رئيس المجلس البلدي وضابط الحالة المدنية مرين عبد القادر.

من أقواله:

كان يقول: تقتلوننا اليوم ونعود للحياة لقتالكم من جديد. كنوع من التحدي للاحتلال.

له قصيدة من الشعر الشعري يؤرخ قصّته، بداية من ذكر سنة الحادثة:

يا لحباب لو نقُص لكم ما جرى لي

تبدو مستغربين في اللي صـــــــرالي

في تاريخ الثـــــورة الجزائريـــــة

بين ثمانية وتسعة جرت لي ذا القصيّة

[1]– بوحميدة محمد، ملحمة شهيد لم يمت، دار الروح، الجزائر،ط1، 2013، ص 16.

ثمّ ينتقل الشاعر إلى الفصل وذكر المعاملة المهينة أثناء تنفيذ حكم الإعدام، لدرجة تعريته من ملابسه في الشتاء.وتنفيذ الإعدام رميا بالرصاص:

في الشّتا الكافر من ثيابي عـــــرّاني بزوج رصايص في الذات زاد كواني
وحدا في الرّاس وحدا في الصدر ثاني هاذيك يا لحباب وطية قتـــــلاني

وتصف القصيدة بمشهديّة وسردية حالة المجاهد بوسماحة، وهو يستفيق من حالة الإعدام، بمشاعر مختلطة يندمع فيها الحدث مع الشعور.

اجرى دمي غزير حامل كالوديان لا طالب لا طبيب لا من دواني
لا والي لا حبيب ولا من نبانـي لاصاحب لا قريب غير ربّي الفوقاني
كانوا معاي زوج في الثّورة شجعان هما لقريوي محمّد والميلود زيّاني
ماتوا شهداء وصاروا للرحمـــــن ذوك حبابي وهما ضي عيانـــي
ديما الله أكبر حاضرة في لساني والقلب معمرة بالتقوى والإيمان

وكأنّه فآخر القصيدة يمنح للمتلقي خلاصة القضيّة التي تتجاوز المسألة الشخصيّة إلى بعدها الجماعي، الذي يحيل إلى القضيّة الأساس وهي الجهاد والمقاومة.

واسمحنا في نسانا ومعهم ولدان طامعين في جنّة الخلد والرّضوان

وقد خلد الشاعر بوحميدة محمد، وهو مؤلف كتاب "ملحمة شهيد لم يمت" بقوله:

لقد رموني بالرصاص فانظروا وإنّما جرحي دليل مقنع
قالوا شهيد لم يمت يا مرحبا أنت لنا رمز عظيم أرفع

4- خاتمة وأهم النتائج:

كان للشعر الشعبي في الجنوب الغربي دوره اللافت في حضوره، ضمن سياق تاريخي يتميّز بتتابع المقاومات الشعبية، إلى مرحلة ثورة التحرير، ممّا منحه أهميّة تاريخية وثقافيّة واجتماعيّة متميّزة، بإسهامه في رفع الوعي الشعبي، ونشر ثقافة المقاومة والتحرّر، ومواجهة حالة الهيمنة والخضوع التي أراد الاحتلال فرضها على واقع الحياة، ونجمل أهمّ التجليّات الجماليّة في صورة المقاومة في قصائده في جملة من العناصر:

1: تعبيره عن روح وثقافة المجتمع القابلة لرفض الهيمنة الأجنبية.

2: ترسيخه لقيم المقاومة والجهاد لمواجهة القوة الاستيطانية المسلحة الفرنسيّة.

3: عامل التعبئة والتحريض على الجهاد والمقاومة التي تتجلى بوضوح في هذا الشعر.

4: العمق التاريخي الواضح في مسألة التأريخ التي يوثقها الشعر الشعبي بتفصيل ظاهر.

5: احتفاؤه بقيادة المقاومة ورجالها وعملها في نصوصه الشعرية.

6: حالة التحدّي والأمل بالنصر التي صبغت خطابه الشعري.

7: حالة الاعتزاز بالقيم والشخصيّة الوطنية ورفض حالة الاندماج التي حاول الاحتلال الترويج لها.

وبالنظر إلى أهميّة هذا الشعر الشعبي وارتباطه بتاريخنا وتاريخ مقاومتنا وثورتنا المجيدة وجهاد شعبنا، نقترح:

1: جمع هذا التراث الشعبي في المنطقة ودراسته.

2: تشجيع تناول نصوص هذا الشعر في الدراسات والأبحاث الأكاديمية والثقافيّة.

3: استنطاق هذه النصوص تاريخيا باعتبارها وثائق تاريخيّة مهمّة وليس مجرّد نصوص أدبيّة.

4: التنسيق بين قسم التاريخ وقسم الأدب في ورشات دراسة مثل هذه النصوص والقيام بهذا الجهد العلمي.

5: إنجاز معجم لشعراء الشعر الشعبي في جنوبنا الغربي.